مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية المجلد(07)، العدد (01)، (جوان -2022)، ص 485-500
ISSN: 2602-5566 EISSN:2716-8999

معركة سبيطلة سنه 29هـ-644م والإرهاصات الأولى للفتح الإسلامي لبلاد المغرب.

The Battle of Sbeitla (29 AH-644 AD) and the Early Beginnings of the Islamic Conquests in the Maghreb.

جمال مسرحي [1] *

جامعة الحاج لخضر - باتنة1 (الجزائر)، Algerien1971@hotmail.fr

تاريخ الإرسال: 2021/10/13 **تاريخ القبول:2022/01/27**

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى توضيح معالم مرحلة هامة من تاريخ بلاد المغرب، ألا وهي مرحلة بداية الفتح الإسلامي، وأهمية موقعة سبيطلة 29هـ-644م فيه، وانعكاساتها على سير الفتوحات من جهة، وموقف السكان المحليين من الاحتلال البيزنطي، ومن المسلمين الوافدين الجدد على المنطقة من جهة أخرى، ثم تفاعل العناصر الثلاث مع الواقع السياسي السائد أنذاك. وقد أوضحنا أن معركة سبيطلة كانت النقطة الفاصلة بين نهاية مرحلة الاحتلال الأجنبي لبلاد المغرب وبداية عصر جديد في مسيرة المغرب الحضارية، ثم الأثر الايجابي لهزيمة البيزنطيين على السكان المحليين، والذي أتاح لهم الفرصة لاعتناق الدين الجديد، بل الانخراط في مسيرة الفتوحات ومحاربة فلول البيزنطيين من أجل تحرير البلاد.

الكلمات المفتاحية: فتوحات إسلامية؛ سبيطلة؛ المغرب؛ إفريقيه؛ عبد الله بن سعد؛ جريغوريوس.

Abstract

This research paper aims to shed light on the features of one important era in the history of the Maghreb, namely the beginning of the Islamic conquests period. The paper starts by highlighting the importance of the Sbeitla battle (29 AH-644 AD) and its repercussions on the course of the conquests. In addition to exploring the local population attitudes towards the Byzantine occupation and the new Muslims arrivals to the region, the study also shows the interaction of these three elements with the prevailing political reality at the time. Throughout the study, it was clear that the Battle of Sbeitla marked a turning point that put an end to the foreign occupation of the Maghreb and set the beginning of a new era in The Maghreb's civilization journey. The paper also made it clear that the defeat of the Byzantine had a positive impact on the local population, which gave them the opportunity not only to embrace the new religion, but also to engage in the march of conquests and fight the remnants of the Byzantines for the liberation of the country.

Keywords: Islamic conquests; Sbeitla; Maghreb; Africa; Abdellah ben Saad; Gregory.

* المؤلف المرسل.

1- مقدمة

لعل من بين المواضيع التي أسالت الكثير من الحبر، وأهدرت الكثير من وقت وجهد الباحثين في تاريخ الإسلام، موضوع الفتوحات الإسلامية ببلاد المغرب، لكنه بالرغم من ذلك، نعتقد أن هناك معالم هامة في المرحلة الأولى من الفتوحات الإسلامية في هذه المنطقة، لم تنل حقها من الدراسة والتحليل، ثم تعليل بعض المواقف الصادرة من هذا الطرف أو ذاك، ولقد حاولنا أن نبين بأن حدثا مثل معركة سبيطلة التي خاضها المسلمون ضد البيزنطيين في بلاد المغرب سنة 29هـ-644م، رغم أهميتها التاريخية لم يتم إبراز دورها الحاسم في سير وتقدم الفتوحات بالمنطقة، لاسيما أن نهايتها السعيدة بالنسبة للمسلمين رسمت معالم المراحل اللاحقة لها. حيث كرست الهزيمة التي مني بها الجيش البيزنطي بقيادة البطريق جريغوريوس التراجع الفعلي للاحتلال البيزنطي، في المقابل سمحت للقوى المحلية (القبائل الإفريقيه) بالنهوض ومقارعة الاحتلال الأجنبي، مستعينة بالروح المعنوية التي غرسها في نفوسها اعتناقها الدين الإسلامي.

- مشكلة الدراسة:

يتفق معظم المؤرخين على طول فترة خضوع بلاد المغرب للاحتلال الأجنبي، من الروماني بداية من 146 ق.م، إلى الوندالي من سنة 429م إلى حلول البيزنطيين للمنطقة في إطار حروب الاسترداد (Les Reconquêtes) حوالي سنة535م، واستمر ذلك الوضع إلى حلول الطلائع الأولى للمسلمين الفاتحين في بداية القرن السابع الميلادي.

فكيف سيتعامل المسلمون الحاملين لرسالة سماوية مع تلك الفسيفساء المتعددة المناهل والمشارب والتأثيرات الحضارية من أجل نشر رسالة الإسلام في هذه البلاد؟

تلك هي الإشكالية الرئيسية التي يطرحها الموضوع، الذي يقودنا إلى إشكاليات أخرى يمكن من خلال دراستها الوصول إلى نتائج تنير ظلام تلك الحقبة من تاريخ المنطقة ومنها:

1- لماذا كان الاحتلال البيزنطي عاملا محفزا للأفارقه لكي يعتنقوا الدين الجديد؟

2- كيف نجحت طلائع المسلمين الفاتحين في جعل سكان بلاد المغرب يعتنقون الإسلام ويتركون حلفائهم البيزنطيين؟

3-كيف تعامل قادة الفتح الإسلامي مع الإشكالية: أأسبقية محاربة البيزنطيين أم تحرير السكان المحليين من المحتلين؟

والملاحظ أن موضوع معركة سبيطلة قد تناوله المؤرخون المسلمون الذين كتبوا عن الفتوحات الإسلامية، وتعتبر كتاباتهم مصادر أساسية، مثل ابن عبد الحكم وكتابه فتوح مصر والمغرب، وابن عذارى المراكشي وكتابه البيان المُغرب في أخبار المغرب، ناهيك عن بعض الدراسات الحديثة، التي أشارت إلى الموضوع مثل تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال لسعد زغلول عبد الحميد، والمغرب الكبير لعبد العزيز سالم، وغيرها من الدراسات التي وإن تطرقت

إلى موضوع معركة سبيطلة إلا أنها لم تعطها حقها من التحليل، كما أنها في غالب الأحيان حاولت أن تبرز عظمة إنجاز الجيش العربي على حساب الواقع التاريخي الذي يتطلب إبراز جميع عناصره الفاعلة، وهو ما جعلنا نقدم على محاولة تناول تلك العناصر بشيء من الدقة والتحليل في هذه الورقة البحثية، من خلال إظهار العناصر الفاعلة الثلاث: البيزنطيين المحتلين، المسلمين الفاتحين، ثم السكان المحليين المقهورين من قبل المحتلين. وقد سعينا من وراء ذلك إلى تحقيق جملة من الأهداف أهمها:

1- توضيح الصورة التي كان عليها المغرب عشية الفتح الإسلامي.

2- إبراز أهمية معركة سبيطلة التي جرت سنة 29هـ كلبنة أولى وضعها المسلمون لبناء صرح المغرب الإسلامي من جهة، ثم القضاء النهائي على عصر الاحتلال الأجنبي الذي عاشه المغرب منذ سقوط قرطاجه سنة 146 ق.م.

3- التأكيد على الأهمية الإستراتيجية لانتصار المسلمين في موقعة سبيطلة، بما حمله من رفع معنويات السكان المحليين، وهو ما حفزهم على الثورة ومقارعة محتليهم بعد اعتناقهم الإسلام.

ومن خلال اعتمادنا على الوثائق والنصوص الأساسية التي تناولت الموضوع، لاسيما حيثيات موقعة سبيطلة معتمدين على المنهج التحليلي الذي مكننا من استقراء الوثائق والنصوص التي أشرنا إليها آنفا.

ولعلاج الإشكالية المطروحة بعناصرها المختلفة والوصول إلى الأهداف التي سعينا إلى تحقيقها من خلال دراسة الموضوع اعتمدنا الخطة التالية:

1- المغرب عشية الفتح الإسلامي
2- ظروف معركة سبيطلة
3- معركة سبيطلة وانكسار البيزنطيين
   أ- موقع مدينة سبيطلة
   ب- التحضير للمعركة
   ج- استعداد البيزنطيين للمعركة الحاسمة
   د- موقعة سبيطلة وانتصار المسلمين
4- انعكاسات موقعة سبيطلة على تقدم الفتوحات

هذا بالإضافة إلى المقدمة والخاتمة التي ضمناها أهم النتائج التي توصلنا إليها.

1- المغرب عشية الفتح الإسلامي:

اتسمت الخارطة السياسية لبلاد المغرب قبيل الفتح الإسلامي بالتنوع في الأعراق والمذاهب، ثم الاتجاهات التي ضمت إلى جانب البربر أي السكان الأصليين في المنطقة: الوندال الناجين من معارك حروب الاسترداد التي خاضها البيزنطيون لاستعادة المقاطعات الإفريقيه، التي استولى عليها الوندال أثناء غزوهم للشمال الإفريقي بداية من سنة 429 م. (غانم، 2010، صفحة 288)

لقد كانت حروب الاسترداد تلك، بقيادة سولومون (Solomon) حوالي سنة535م، أداة لإلقاء الضوء على منطقة الشمال الإفريقي، فيما كان القرن السادس ميلادي عموما قرن الحملة البيزنطية بشعارها **"استرداد إفريقيه من الهراطقة الوندال"** على حد تعبير الباحث عقون محمد العربي. (عقون، 2005، الصفحات 7-18)

ويذكر المؤرخ شارل ديهل (Charles Diehl) أن التأثير الوندالي لدى السكان المحليين الذين تحالفوا مع القادة الوندال استمر عالقا بالأذهان في المناطق التي خضعت لسلطتهم، سواء في الشرق الجزائري أو شمالي تونس (حاليا) (Diehl، 1896، الصفحات 539-541) ثم نجد البيزنطيين الذين تحصنوا في مستوطناتهم وقلاعهم بشمال شرقي نوميديا و موريطانيا السطيفية (La Mauritanie Setifienne) غربا، وبسطوا سيطرتهم حتى بلغت حدود مقاطعة المزاق (Byzacenia) شرقا (Diehl، 1896، الصفحات 548-551) بينما نجد التركيبة القبلية للسكان المحليين تنقسم بشكل عام إلى جذرين أساسيين هما: البرانس والبتر (ابن خلدون، 1983، الصفحات 3-4). وكل جذر كما هو معروف منقسم إلى فروع كثيرة، في غالب الأحيان يكون ولائها السياسي والعسكري ثم الاجتماعي للجذر الذي تنحدر منه. (شنيتي، 1999، صفحة 513)

وتشير المصادر إلى أن تلك القبائل كان يقودها أمراء يتمتعون بنوع من السلطة على كامل أفراد وإقليم القبيلة. وتذكر النصوص القديمة بعض الأسماء من الأمراء البربر في الفترة السابقة للفتح الإسلامي لبلاد المغرب مثل: يوداس(Ioudas) في الأوراس شمالا و إيرتياس (Irthias) في إقليم الزاب. (غانم، 2010، صفحة 288)

هذا الأخير لا نستبعد أن تكون سلطته قد امتدت إلى منطقة الحضنة غربا، إضافة إلى الأميرين: مازوناس (Mazonas) وغرمول (Guermoul) اللذين تشير بعض الكتابات القديمه إلى كونهما كانا يحكمان في الغرب الجزائري حاليا من إقليم الحضنة شرقا إلى موريطانيا الطنجية غربا، وأن غرمول كان قد عاش في القرن السادس وقد خلف الأمير ماستيغاس (Mastigas) على حكم قبيلة المكوريت (مغراوة) (Macourite) في منطقة الونشريس. (شنيتي، 1999، صفحة 514)

نجد أيضا ما عرف بقبائل الجمالة الشرقيين الذين كانوا مستقرين في جبال نفوسة ومحيطها، ثم انتقلوا عبر فترات مختلفة نحو الغرب أثناء فترة حكم زعيمهم كابون (Caboune). (غانم، 2010، الصفحات 288-289)

وتشير بعض المصادر إلى عقد تحالفات بين قبائل الجمالة وقبائل الجيتول الصحراويين لمواجهة التواجد البيزنطي لاسيما في السفوح الجنوبية النوميدية، عند خطوط الليمس النوميدي جنوبي الأوراس(Le Limes de la Numidie). نظرا لكونه ظل يعرقل تنقل تلك القبائل، لاسيما أنصاف الرحل (Les Semi-Nomades) من الجنوب نحو الشمال أو العكس. (غانم، 2010، الصفحات 288-289)

يتفق هذا إلى حد بعيد مع ما أورده ابن خلدون حول تواجد قبيلة زناتة وتحركاتها في المنطقة، خاصة أهم فروعها جراوة التي تولت زعامتها الكاهنة في مرحلة لاحقة، ويضيف ابن خلدون أن قبيلة زناتة فيما قبل الفتح الإسلامي كانت تستقر في الأوراس وجنوبه، وأن معظم أراضيها كانت مجاورة للبيزنطيين، لذلك كانت تدفع لهم الخراج وتشاركهم حروبهم وذلك قبل ضعف هؤلاء الآخرين. (ابن خلدون، 1983، الصفحات 6-7)

هذا دون التغاضي عن عنصر الأفارقة خاصة المترومنون (Les Africains Romanisés) وفي الغالب كانوا إما زراعا مستقرين في الحواضر أو عبيدا لدى القوة المسيطرة في واقع الأرض. (غانم، 2010، صفحة 289)

2- ظروف معركة سبيطلة:

لقد استقر المسلمون الفاتحون في بداية الأمر عند فتح مصر سنة 21هـ على يد عمرو بن العاص، بمدينة الفسطاط التي أنشئوها لتكون عاصمة لهم هناك، بينما كان المغرب في تلك المرحلة تنخره الاضطرابات الناجمة عن تضارب المصالح والأطماع، ناهيك عن الاختلافات المذهبية أو العقيدية بين النسيج الاجتماعي المكون للبلاد، سواء تعلق الأمر بالبيزنطيين الذين كانوا يشكلون القوة المهيمنة على ثروات البلاد، أو بقايا الوندال المنتشرين هنا وهناك في بلاد المغرب القديم زيادة على السكان المحليين من البربر الذين كان ولاؤهم لقبائلهم الموزعة عبر كامل الشمال الإفريقي.

وكما أسلفنا الذكر فان العرب الفاتحين، بعد أن استقر لهم الأمر في مصر، واتخاذهم من الفسطاط عاصمة لهم هناك، قام القائد عمرو بن العاص بإرسال سرية استطلاع إلى بلاد المغرب، وأسند المهمة إلى عقبة بن نافع الفهري. (العقافي، 2012، الصفحات 11-13)

وكان الهدف من ذلك على ما يفهم مما أورده ابن عذارى المراكشي (ت695هـ) حول تلك السرية الأولى هو استكشاف الوضع بإفريقيه وجس نبض السكان المغاربة ودعوتهم إلى اعتناق الإسلام، ثم اختبار قوة البيزنطيين باعتبارهم السلطة الحاكمة في المنطقة. وكان القائد عقبة بن

نافع قد خير القبائل المحلية المتاخمة لحدود مصر بين اعتناق الإسلام أو دفع الجزية. (ابن عذاري، 1947-1950، صفحة 8)

كانت أولى الاتصالات التي عقدها قائد السرية (عقبة) مع قبيلة لواتة المتمركزة بمدينة برقة شرقي ليبيا الحالية، ولم يجد معارضة لدعوته سواء تعلق الأمر بقبيلة لواته نفسها أو القبائل الموالية لها مثل هوارة ونفوسة، ذلك ما كان مشجعا لمواصلة استكمال الفتح، حيث لم يتوان عمرو بن العاص في قيادة حملة أخرى بنفسه منطلقا من مصر، فسار إلى برقة، ثم إلى طرابلس، يعرض الإسلام على القبائل المستقرة في تلك المناطق على غرار هوارة، لواته، زواغة ثم نفوسة. (لقبال، 1984، الصفحات 18-19)

لم تواجه عمرو بن العاص في حملته الأولى على بلاد المغرب أية صعوبات تذكر، ولم يتلقى أية مواجهة، بل يبدو أن حملته وجدت قبولا قد يكون نسبيا (حذرا) من قبل القبائل المحلية في شرقي إفريقيه، ذلك ما شجعه دون شك على مواصلة السير باتجاه الغرب واضعا صوب أعينه السيطرة على إفريقيه، فسار إلى أن بلغ مناطق السيطرة البيزنطية التي كانت مدنها محصنة بالقلاع وأبراج المراقبة والجدران الدفاعية. (ابن عذاري، 1947-1950، صفحة 9)

بعد ما لاحظه عمرو بن العاص من تحصينات حول المدن البيزنطية بإفريقيه، اضطر إلى العودة إلى مصر، لأنه كان مدركا أن غزو تلك المدن يحتاج إلى إعداد جيش كبير وتجهيزه بعتاد يلائم ذلك الوضع، حتى يتمكن من تحقيق هدفه.

ويذكر بعض المؤرخين أنه في طريق عودته إلى مصر، قام عمرو بن العاص بفرض الجزية على القبائل التي مرت عليها سريته، كما فضل أنه يترك عقبة ابن نافع في مدينة برقة. (سالم، 1969، صفحة 135)

يبدو أن عمرو بن العاص قد استقر رأيه على اتخاذ مدينة برقة كقاعدة خلفية للمراقبة والاستطلاع، وربط الاتصالات لاكتشاف مراكز القوة والضعف لدى العناصر المتحكمة في المنطقة سواء تعلق الأمر بالبيزنطيين (القوة الرئيسية)، أو حلفائهم من القبائل المحلية البربرية، لاسيما أنه علم بانتشار الديانة النصرانية لدى بعض القبائل، واستمرار الوثنية لدى البعض الأخر، ومن ثمة بدأ التفكير في التصدي لإتباع الطائفتين. (غانم، 2010، صفحة 291)

لم يلبث عمرو بن العاص أن باشر في تنفيذ خطته لفتح إفريقيه حتى جاءته أخبار غير سارة من عاصمة الخلافة الراشدة. حيث وفي تلك الفترة نقلت لنا المصادر التاريخية وفاة الخليفة عمر ابن الخطاب متأثرا بطعنة سكين مسموم. (سالم، 1969، صفحة 135)

وتولى عثمان بن عفان الخلافة بعده، فقام هذا الأخير بعزل عمرو بن العاص من ولاية مصر سنة 27هـ-647 م، وعين مكانه عبد الله ابن سعد بن أبي السرح العامري أخاه من الرضاعة. (فروخ، 1981، صفحة 57)

واضح أن الخليفة عثمان بن عفان بتعيينه عبد الله بن سعد بن أبي السرح أراد استكمال الفتوحات فيما وراء مصر.

وتنفيذا لرغبة الخليفة وأوامره قام القائد الجديد بالإعداد لحملة كبيرة نحو إفريقيه كان ذلك سنة 27هـ-647 م. (لقبال، 1984، صفحة 20)

3- معركة سبيطلة وانكسار البيزنطيين:

أ-موقع مدينة سبيطلة:

لم يرد اسم مدينة سبيطلة في الكتابات التاريخية السابقة للتواجد الروماني بالشمال الإفريقي أو في الآداب الإغريقية- اللاتينية (الكلاسيكية)، بينما نجده يتوارد بشكل ملحوظ في النصوص التي تطرقت إلى شبكة الطرق التي أنشأها الرومان في العصر الإمبراطوري، كما يظهر اسم المدينة في قائمة الرهبان أي ما يعنى ارتباط المدينة بانتشار المسيحية بلاد المغرب القديم. (Baratte & Duval, 1973, p 19)

لكن النصوص العربية الإسلامية تناولت تاريخ وجغرافية المدينة بشكل واف، فقد أشار الكثير من الرواة المسلمين إلى أن المدينة شيدت على سهل تونس جنوب غربي مدينة القيروان التي أسسها الفاتح عقبة ابن نافع الفهري على بعد حوالي 120 ميلا إلى الجنوب من مدينة قرطاجة. (الوزان، 1983، صفحة 40) وبين هذه الأخيرة ومدينة سبيطلة 70 ميلا حسب ما أورده الإدريسي الذي قال عنها: **"إن مدينة سبيطلة كانت مدينة جرجير ملك الروم الأفارقة، وكانت من أحسن البلاد منظرا، وأكبرها قطرا، وأكثرها مياه، وأعدلها هواء، وأطيبها ثرى، وكانت بها بساتين وجنات، وافتتحها المسلمون في صدر الإسلام"**. (الادريسي، 1983، صفحة 145)

ويذكر الباحث محمد بن ناصر أنها تقع إلى الجنوب من مدينة قرطاجة بحوالي 16 ميلا، وأن البيزنطيين كانوا قد أتخذوها عاصمة لهم بدلا عن قرطاجة، كما أنها بنيت على إحدى ضفاف الوديان المتفرعة عن نهر مجردة الذي كان يرتوي من مياهه سكان المدينة، وأنها كانت تخفيها غابة من الأشجار الكثيفة. (الملحم، 1999، صفحة 140)

بينما يرجع الأثريان ن. دوفال (N. Duval) وف. بارات (F. Baratte) تأسيس المدينة إلى الفترة التي أعقبت إخماد انتفاضة الأوراس بقيادة تاكفاريناس(17-24م)، أي كان متزامنا مع تأسيس عدة مدن: كحيدرة (Amaedra)، وتيليبت (Telepte) وغيرها. وقد تمتعت تلك المدن بصفة بلدية رومانية قبل أن ترتقي إلى مرتبة المستعمرة الرومانية، ثم أصبحت مع نهاية القرن الثاني الميلادي تسير من قبل حاكم يعينه الإمبراطور. (Baratte & Duval, 1973, p 08) وخلال القرن الرابع للميلاد انتشر بالمدينة على ما يبدو المذهب الدوناتي على غرار الشرق النوميدي والجنوب القرطاجي، مما

أدى إلى اضطرابات خطيرة في المنطقة. لكن المدينة حافظت على أهميتها الإستراتيجية لدى البيزنطيين حتى مجيء العرب الفاتحين. (فروخ، 1981، صفحة 55)

ب- التحضير للمعركة:

بعد تسميته من قبل الخليفة عثمان بن عفان واليا على مصر، تبنى عبد الله بن سعد نفس سياسة سلفه عمرو بن العاص بعد فتحه لطرابلس، حيث ما انفك يرسل فرقا من الخيالة إلى أطراف إفريقيه، لتقصي الحقائق على الأرض، واستكشاف العدو، وجس نبضه، وتحديد قوته، وتعداد جنده، دون التغاضي عن الغنائم التي كان يحصل عليها الجند بعد كل غارة. (عبد الحميد، 1993، صفحة 147)

يبدو أن عبد الله بن سعد كان يدرس بدقة مخلفات تلك الغارات التي كان يقوم بها فرسانه فيما وراء طرابلس. وبناء على تلك الاستطلاعات كان يقدر ما يمكن أن تتلقاه قواته من صعوبات في أرض المعركة، فكان يعد المعركة انطلاقا من ذلك.

تمكن خليفة عمرو بن العاص من جمع أكبر قدر من المعلومات عن عدوه في إفريقيه فكتب إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان يشرح له ما قام به، وما لاقاه جنوده وما يمكن أن يعترضهم. فعدّد له ما حازوه من غنائم، ثم حاول استمالة موقف الخليفة من خلال إخباره بكثرة أموال إفريقيه وضعف رجالها. (العمايرة، 2010، صفحة 61)

لما بلغه كتاب عبد الله ابن سعد تردد الخليفة عثمان بن عفان في الموافقة على غزو إفريقيه تأسيا بما قام به الخليفة عمر بن الخطاب حين طلب منه عمرو بن العاص ذلك، محذرا إياه من صعوبة المنطقة. وتنقل لنا النصوص مقولته الشهيرة: "**إنها ليست بإفريقيه ولكنها المفرّقة مغدور بها لا يغزوها أحد ما بقيت**". (ابن عبد الحكم، 1961، صفحة 232)

وفقا لمبدأ ما خاب من استشار، وبعد تردده قام الخليفة عثمان بن عفان بعرض الأمر على كبار معاونيه والمقربين منه من الصحابة، فأشاروا عليه بالموافقة على غزو إفريقيه على أن لا يكون ذلك قبل إرسال حملات استطلاع واستكشاف للمنطقة توخيا للحذر. (العمايرة، 2010، صفحة 62)

وبعد موافقة الصحابة الذين استشارهم عثمان بن عفان، ما كان على هذا الأخير إلا أن يقوم بتعبئة الجيش الذي سيرسله كمدد لوالي مصر الجديد، وقد نصّب الحارث ابن الحكم قائدا لهذا الجيش حتى يصل إلى مصر، أين كان عبد الله بن سعد ينتظر من الخليفة الإذن والمدد. (ابن عذاري، 1947-1950، صفحة 9)

وتذكر النصوص التاريخية أن هذا الجيش المدد تألف من خيرة رجال القبائل العربية، وقد أوردت ذات النصوص أعدادا مفصلة لجند هذا المدد فتذكر: 600 ستمائة رجل من قبيلة مهرة، 700 سبعمائة من قبيلة الأزد، 700 سبعمائة من قبيلة غنت، 300 ثلاثمائة من قبيلة أسلم، 800

ثمانمائة من قبيلة مزينة، 450 أربعمائة وخمسون من بني سليم.. وقد ناهز العدد الإجمالي لهذا الجيش ما يربو عن الستة آلاف (6000) رجل (عبد الحميد، 1993، الصفحات 148-150). مضافين إلى الجيش الذي كان بحوزة والي مصر عبد الله بن سعد، ليصبح العدد الإجمالي للجيش الذي سيتجه نحو المغرب لخوض معركة سبيطلة حوالي عشرين ألف (20) ألف جندي. (مؤنس، 1947، صفحة 83)

سلك عبد الله بن سعد بجيشه الذي ناهز العشرين ألف رجل طريق الساحل متجها نحو طرابلس، من أجل تمويه العدو، لإعطائه الانطباع أنه ليست لديه أية أطماع في المناطق الداخلية من بلاد المغرب. (الملحم، 1999، الصفحات 156-157)

ج/إستعداد البيزنطيين للمعركة الحاسمة:

نذكّر أن القائد البيزنطي جريغوريوس (جرجير) قد أعلن انفصاله عن الإمبراطورية البيزنطية وخلع طاعة الإمبراطور هرقل (Héraculius) فصنع لنفسه في الشمال الإفريقي مكانة تفوق مرتبة الإمبراطور نفسه(Bremond, 1950, p. 180) .

وفي إطار استعداده لملاقاة الجيش العربي، وبعد تثبيت سلطته بعاصمته الجديدة (سبيطلة)، وجه نداء إلى بيزنطيي إفريقيه، وإلى السكان المحليين الخاضعين لسلطته أو الأفارقه المرومنين، من أجل تكوين قوة دفاعية ضد الخطر القادم من الشرق، خصوصا بعد أن ضاعت منه الكثير من المدن مثل: برقه، طرابلس، فزان... وغيرها. ولقد استطاع جريغوريوس بفضل زرع التخوف من الوافدين الجدد على بلاد المغرب في نفوس السكان المحليين، استطاع أن يجمع حوله قبائل محلية كثيرة.(Mercier, 1888, pp. 196-197)

تمكن القائد البيزنطي أن يجمع حسب ما تذكره بعض المصادر العربية ما يربو عن 120 ألف مقاتل في صفوف جيشه معظمهم من الأفارقة. (ابن عذاري، 1947-1950، صفحة 9) إلا أن بعض المؤرخين يشيرون إلى أعدادا أكبر من هذا، فنقلوا لنا أرقاما لا يمكن تصديقها كرقم 200 ألف (مائتي ألف مقاتل) (عبد الحميد، 1993، صفحة 154). إذ أن الجيش الإسلامي الذي عسكر قرب سبيطلة لم يكن يتعدى 10 عشرة ألاف مقاتل على اعتبار أن النصف الثاني منه كان قائد الجيش قد اختار ضمن خطته أن يوزعه على مواقع إستراتيجية (الأودية والجبال) (الملحم، 1999، صفحة 157) وجعلها أماكن للكمائن ضد العدو في حالة انسحابه أو تغييره لخطة المعركة المنتظرة، وبالتالي كيف لعشرة آلاف مقاتل أن تواجه هذه الأعداد الرهيبة من الجند، ثم أن الكثير من البربر كانوا قد انضموا إلى جيش المسلمين ضمن لواء يقوده عقبة ابن نافع، وذلك انتقاما مما كانوا يلاقونه من ظلم وجور البيزنطيين. (الملحم، 1999، صفحة 157)

مهما يكن العدد الحقيقي لجيش جريغوريوس فانه بكل تأكيد كان ضخما ويفوق عدد جند المسلمين، وذلك ما يبرر الحماس، بل الغرور الذي كان عليه القائد البيزنطي عندما حاول المسلمون

التفاوض معه عارضين عليه الاختيار بين اعتناق الإسلام أو دفع الجزية. وبالتالي العدول عن الحرب والقتال تفاديا لإراقة الدماء، حيث ذكر بعض المؤرخين أن تلك المفاوضات جرت في موقع لا يبعد عن سبيطلة إلا بيوم وليلة يسمى عقوبة. (Mercier، 1888، صفحة 197)

وأمام تعنت الحاكم البيزنطي، ورفضه كل العروض السلمية التي قدمها له قائد المسلمين عبد الله ابن سعد يكون قد أعلن الحرب، فكانت موقعة سبيطلة الحاسمة.

د-موقعة سبيطلة وانتصار المسلمين:

بعد فشل المفاوضات بين الطرفين رغم طول مدتها، انتاب المسلمون نوعا من الشك والخوف، خصوصا لما رأوه عند جريغوريوس من حماس واستعداد للقتال.

من الواضح أن عبد الله ابن سعد كان يأخذ وقته الكافي (بضعة أيام)، في التفكير والملاحظة ومراقبة جيش العدو. (جوليان، 1983، صفحة 17)

ولما استقر الرأي بصورة نهائية حول حتمية المواجهة، قام قائد جيش المسلمين بتقسيم جيشه على هيئة القتال التي غالبا ما تبنى على ميمنة وميسرة وقلب. (العمايرة، 2010، صفحة 65) وقد كان فرسان عبد الله بن سعد على ظهور الخيول العربية السريعة المتحملة للمشاق، بالإضافة إلى الجند المشاة بأسلحتهم الخفيفة، فيما وضعت الإبل في الخلف. (عبد الحميد، 1993، الصفحات 154-156)

إذن وعلى مقربة من حصن عقوبة خطب عبد الله ابن سعد في جيشه حاثا أفراده على الصبر والصمود في المواجهة رافعا من معنوياتهم، فبادر المسلمون في اليوم الأول لمفاجئة عدوهم في مواقعه. (الملحم، 1999، صفحة 63)

تنقل لنا بعض الروايات حال القائد البيزنطي في تلك الأثناء، حيث تصوره أنه كان يقف خلف قواته ممتطيا جواده وإلى جانبيه جاريتان تظلانه من حرارة الشمس بريش الطاووس. (عبد الحميد، 1993، صفحة 154) هكذا بدأت المواجهات بين الطرفين، وهي أقرب إلى المناوشات منها إلى مواجهات الحرب الحقيقية على ما يبدو. لكون كل طرف كان متخوفا من الأخر، وتذكر النصوص التاريخية أن الجيشين كانا يقتتلان من الصباح إلى الزوال (الظهر)، فيعود الجند إلى مواقعهم، ليستأنفوا القتال في اليوم الموالي صباحا. (ابن عبد الحكم، 1961، صفحة 185)

ولتحفيزهم قام جريغوريوس بإغراء جنده، فوعد من يستطيع قتل قائد جيش المسلمين عبد الله ابن سعد منهم بأن يزوجه ابنته التي كانت حاضرة أطوار المعركة، فكانت تراقب سير القتال من منصة كان والدها قد أقامها في أعلى الحصن ليشرف منها على جنده أثناء القتال، فلما بلغ الأمر عبد الله ابن سعد رد عليه بأن وعد فرسانه بأن من يقتل قائد جيش العدو له ابنته وما معها، على ما يذكر ابن عذاري. (ابن عذاري، 1947-1950، صفحة 10)

استمرت المناوشات بين الطرفين على تلك الحال مدة طويلة (عدة أيام) بسبب تخوف كل طرف من الأخر على أن الطرف المسلم كان قد ناله التعب وبلغ اليأس منه مبلغا عظيما، وتذكر الروايات أن أخبار الحملة على إفريقيه قد انقطعت عن الخليفة عثمان ابن عفان، فأراد أن يستطلع الأمر، فبعث عبد الله ابن الزبير في فرقة من الجند لتقصي الحقائق حول هذه الحملة، ولما أدرك ابن الزبير جيش المسلمين، غمرتهم السعادة، والفرح فهللوا وكبروا حتى شعر البيزنطيون بذلك وظنوا أنه مددا قدم إليهم، فحط ذلك من معنوياتهم. (مؤنس، 1947، صفحة 87)

بوصول عبد الله ابن الزبير إلى موقع المعركة يكون عدد "العبادلة" قد اكتمل وحق للمؤرخين أن يطلقوا على هذه المعركة اسم معركة العبادلة (العمايرة، 2010، صفحة 62).

كان عبد الله ابن الزبير على ما تصوره الروايات متحمسا لقتال البيزنطيين، وملاقاة قائدهم. فقد أشارت إلى لقاء ابن الزبير مع ابن سعد واتفقا على خطة تقوم على تنفيذ ابن الزبير لهجوم على خيام العدو، والاتجاه صوب القائد جريغوريوس دون لفت انتباهه إلى ذلك، أي الاعتماد على نوع من أساليب الخدعة والمباغتة، حيث يتقدم ابن الزبير رفقة حوالي 30 ثلاثين فارسا إلى معسكر العدو على هيئة يحسبه القائد البيزنطي وأصحابه رسول إليهم. وعند اقترابه منه يقاتله أو يبارزه، ومن ثمة التخلص منه. (ابن عذاري، 1947-1950، صفحة 11)

وقد نفذ عبد الله ابن الزبير الخطة المتفق عليها واستطاع أن يهاجم خيام البيزنطيين رفقة الثلاثين فارسا وفق ما أتفق عليه مع عبد الله ابن سعد، واستطاع التخلص من القائد البيزنطي جريغوريوس والقضاء عليه، في معركة خاضها مع من معه من الفرسان، وقد قضى مع جريغوريوس الكثير من جنده، كما أسرت ابنته. (ابن خلدون، 1983، صفحة 1005)

لما قتل قائدهم هرع البيزنطيون إلى مدينة سبيطلة للاحتماء خلف أسوارها. وهم يفرون من المعركة التي انهزموا فيها شر هزيمة، وتذكر المصادر أنه وقع الكثير منهم في مصيدة الكمائن التي كان عبد الله ابن سعد قد نصبها في الجبال والأودية المؤدية إلى سبيطلة، كما سبقهم قسم من جيش المسلمين إلى أبواب المدينة فمنعوهم من دخولها، وطاردوهم يمينا وشمالا في الجبال والتلال والوديان ومنعوهم من دخول المدينة، بل قتلوا واسروا الآلاف منهم. (ابن عذاري، 1947-1950، صفحة 11)

قام من استطاع دخول المدينة من فرسان جريغوريوس رفقة السكان بالتحصن بداخلها، فما كان على المسلمين إلا إحكام الحصار على المدينة، إلى أن تمكنوا من اقتحامها وفتحها، فغنموا وأسروا من أهلها وجندها الكثير حتى قيل: **"ورأى فيها من الأموال ما لم يكن في غيرها. فكان سهم الفارس ثلاثة ألاف دينار وسهم الراجل ألف دينار"**. (خطاب، 1977، صفحة 87)

تجمع الروايات العربية على هذه النهاية التي خلص إليها القائد البيزنطي جريغوريوس، إلا أن هناك رأي أخر لدى بعض المؤرخين الغربيين بالخصوص، مفاده التشكيك في مقتل جريغوريوس في موقعة سبيطلة وأنه بعد هزيمته في المواجهات مع عبد الله ابن الزبير فر من المعركة ولجأ إلى الغرب مبتعدا عن مناطق سيطرة المسلمين مدة من الزمن، ثم أرسل إلى عبد الله بن سعد يطلب الصلح، وقد فعل ذلك قائد جيش المسلمين على ما تذكر إحدى الآراء التي قدمها الباحث هنري توكسيه (Henri Tauxier) في سياق ما قدمه من أطروحات حول مصير القائد البيزنطي (Tauxier, 1885, pp. 284-303).

إن المتمعن في هذه الرواية الشاذة يدرك أنها جانبت الحقيقة التاريخية، إذ كيف لعبد الله بن سعد أن يقبل الصلح مع جريغوريوس وهو في تلك الحالة. ثم أن هذا الأخير كان قد رفض الدخول في الإسلام أو دفع الجزية مرارا، عندما كان المسلمون يتفاوضون معه قبل المعركة، ولعل من طلب الصلح بعد معركة سبيطلة هم أهل إفريقيه من البربر حماية لأنفسهم، ويكون عبد الله ابن سعد قد صالحهم على أن يسلموا أو يدفعوا الجزية. (العمايرة، 2010، صفحة 66)

يشير ابن عبد الحكم أن عبد الله ابن سعد قد عقد الصلح مع أهل إفريقيه على أن يدفعوا مبلغا من المال لم تحدد قيمته، ويضيف أن ابن سعد حمل معه ذلك المال وقفل عائدا إلى مقر إمارته في مصر، ولم يول أيا من المسلمين على إفريقيه، بل ولم يجعل منها ولاية تحت لواء الخلافة الإسلامية. (ابن عبد الحكم، 1961، صفحة 247)

ولعل ما قام به قائد جيش المسلمين مرده إلى كون جيشه فقد الكثير من عناصره، وأنهكت قواه بالمعارك السابقة، ولم يعد قادرا على مواصلة القتال، وأن إرسال الإمدادات في تلك الظروف أصبح غير ممكنا، لذلك فضل عدم المغامرة على ما يبدو، لاسيما وأنه يكون قد لاحظ محاولات البيزنطيين إعادة بناء قواتهم ونسج تحالفات جديدة مع السكان المحليين، وهو ما جعله يفضل ترك المواجهة لمراحل لاحقة أو لمن سيخلفه على قيادة جيش المسلمين في إفريقيه.

4- انعكاسات موقعة سبيطلة على تقدم الفتوحات:

نذكّر أنه بعد عقد الصلح مع أهل إفريقيه بالشروط المتفق عليها، غادر عبد الله ابن سعد قافلا إلى مقر حكمه في الفسطاط بمصر، رفقة جنده، حاملين ما غنموه من أموال وسبايا. وكان عبد الله ابن الزبير قد خرج قبله من مدينة سبيطلة قاصدا عاصمة الخلافة الإسلامية (المدينة المنورة) للقاء الخليفة عثمان ابن عفان، من أجل إخباره بنتائج هذه الحملة على إفريقيه. وبطلب من هذا الأخير قام عبد الله ابن الزبير بإلقاء خطبة أمام أهل المدينة الذين حضروا إلى الخليفة

فكانت تلك الخطبة بمثابة عرض حال عما أبلى به المسلمون من بلاء حسن بالأرض الإفريقيه وبما حققوه من مكاسب للإسلام، حيث من الله عليهم بالنصر على البيزنطيين، وكسر شوكتهم بإفريقيه. (ابن عبد الحكم، 1961، صفحة 249)

الانتصار على البيزنطيين في سبيطلة له من الأهمية بمكان ما يجعله محل إشادة من قبل مؤرخي هذه الفترة وذلك بما خلفه من وقع في نفوس الأفارقه، فجعلهم يخرجون عن السيطرة البيزنطية. (جوليان، 1983، صفحة 17)

وكان لمقتل القائد البيزنطي جريغوريوس على يد عبد الله ابن الزبير الأثر البالغ على معنويات المسلمين وتصميمهم على مواصلة الفتوحات. (غانم، 2010، صفحة 291)

كما مكن مقتل القائد البيزنطي القبائل الإفريقيه من كسر حاجز الخوف من المستعمر، وذلك ما مهد للصلح مع المسلمين، وفتح صفحة جديدة بدأت من خلالها الثقة بين الطرفين حسب ما يفهم مما أورده ابن عذارى. (ابن عذاري، 1947-1950، صفحة 13)

ومن النتائج الهامة لهذه المعركة لا يمكن أن نهمل الجانب المادي في الموضوع، أي المكاسب المالية والغنائم والسبي وما إلى ذلك. على الرغم من اختلاف النصوص حول القيمة الحقيقية حوله، إلا أن بعض المؤرخين يشير إلى كونها تجاوزت مئات الآلاف من الدنانير على الرغم من أن ذلك كان مشروطا بمغادرة جيش المسلمين البلاد. (العمايرة، 2010، صفحة 70)

ولو أن السكان المحليين سيدركون لاحقا أن هؤلاء المسلمون لم يأتوا إلى إفريقيه من أجل السلب والنهب والحصول على الغنائم والخيرات الإفريقيه، على غرار من مروا على البلاد من المستعمرين.

وبالفعل قد أدركوا أن هؤلاء الفاتحين كانت أهدافهم سامية وغايتهم نبيلة، تمثلت في نشر الديانة الإسلامية التي قامت أساسا على العدل والمساواة دون النظر إلى العرق أو اللون. وبذلك نرى أن المسلمين قد نجحوا في استمالة السكان الأفارقة في مدة قصيرة، حيث حققوا خلال السنة وبضعة أشهر التي قضاها الجيش الذي قاده عبد الله ابن سعد في حملته على إفريقيه بما فيها زمن المعركة الحاسمة في سبيطلة (ابن عذاري، 1947-1950، صفحة 11) ما لم يستطع تحقيقه المستعمرون السابقون الذين اجتاحوا الشمال الإفريقي منذ قرون قبل مجيء العرب الفاتحين. وحولوا السكان الأصليين إلى عبيد وأقنان في أرضهم، على الرغم من توافد هؤلاء على اعتناق الديانة المسيحية ظنا منهم أنها ستنقذهم من بطش السلطات الأجنبية التي كانت تكبل أعناقهم. (غانم، 2010، صفحة 292)

5- خاتمة:

من خلال دراستنا لبعض الجوانب المهمة من موقعة سبيطلة والتي خاضها المسلمون الفاتحون في السنة التاسعة والعشرين هجرية نصل إلى مجموعة من النتائج أهمها:

1- السيطرة التامة للبيزنطيين على بلاد المغرب عشية قدوم الفاتحيين المسلمين، بل وتحالف الكثير من القبائل المحلية مع محتليهم. (يبدو أنه تحالف المضطر).

2- محاولة القائد البيزنطي جريغوريوس الانفصال بالمغرب عن السلطة المركزية ولدت لديه الغرور وعدم احتساب العواقب، وهو ما كان في صالح المسلمين أثناء المعركة.

3-مقتل قائد البيزنطيين في بداية المعركة سهل على المسلمين المهمة، حيث تشتت جموع العدو وتفرقت بين مستسلم وفار، لكن خطة الجيش الإسلامي القائمة على تقسيم الجيش إلى قسمين: قسم يخوض المعركة، وقسم ينصب الكمائن ضاعفت من متاعب الجنود البيزنطيين الفارين .

4- عقد عبد الله بن سعد الصلح مع القبائل الإفريقيه مهد الطريق المناسب للفتح الحقيقي لبلاد المغرب، وأذل البيزنطيين ودب في صفوفهم الخوف، ثم مهد للقضاء النهائي على سلطانهم في الشمال الإفريقي.

5- عدم إنشاء المسلمين الفاتحين لمركز حكم في المنطقة، أو قاعدة تكون بمثابة حاضره يلتف حولها السكان حديثي العهد بالإسلام، وعدم تعيين عبد الله بن سعد واليا لإفريقيه على إثر انتهاء المعركة، ثم عودته إلى مصر، أدخل دون شك الريب في نفوس السكان، خوفا مما كان سيلحق بهم إذا عاد البيزنطيون إلى حكم البلاد، لكن ذلك الشك والريب سيتبدد بعودة المسلمون واستئنافهم الفتح على يد القائد معاوية بن حديج وذلك سنة 44هـ-664 م.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: المراجع باللغة العربية

1. ابن خلدون عبد الرحمان (ت 808 ه)، كتاب العبر، ج.7، ط. بيروت، 1983.
2. ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ج.1، تحقيق عبد المنعم عامر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، مصر،1961.
3. ابن عذاري أبو عبد الله محمد (المراكش) (ت 695 ه)، البيان المغرب في أخبار المغرب، ج.1، بيروت، 1947 -1950.
4. الإدريسي (ت 560ه)، المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق محمد حاج صادق، O.P.U، الجزائر، 1983.
1. جوليان شارل أندري، تاريخ إفريقيا الشمالية تونس-الجزائر- المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830 م، ج.2، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، 1983.
5. الحسن بن محمد الوزان الفاسي (ت 944ه)، وصف إفريقيه، ج.1، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط.2، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983.
2. حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة،1947.
3. خطاب محمود شيت، عقبة ابن نافع الفهري، ط.5، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1977.
4. سالم عبد العزيز، المغرب الكبير، العصر الإسلامي، ج.2، القاهرة، 1969.
5. شنيتي محمد البشير، الجزائر في ظل الإحتلال الروماني بحث في منظومة التحكم العسكري (الليمسالموريطاني) ومقاومة المور، ج.2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1999.
6. عبد الحميد سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال، ج.1، منشأة المعارف، الإسكندرية مصر،1993.
7. العفاقي رشيد بن عبد السلام، عقبة ابن نافع الفهري 10-63 ه فاتح المغرب، مركز
8. عقون محمد العربي، المنطقة الأوراسية في القرن السادس الميلادي من خلال المصادر، (مجلة العلوم الإجتماعية والإنسانية)، ع.12، جامعة باتنة، 2005.
9. العمايرة محمد نايف، معركة سبيطلة بوابة إفريقيه، (حوليات آداب عين شمس)، ع.38، جامعة عين شمس، مصر، 2010.
10. غانم محمد الصغير، مقالات وآراء في تاريخ الجزائر القديم، ج.2، دار الهدى، عين مليلة الجزائر، 2010.
11. فروخ عمر، العرب والإسلام في الحوض الغربي في البحر الأبيض المتوسط، في فتح المغرب وفتح الأندلس إلى آخر عصر الولاة (138ه-756م)، ط.2، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.1981.

12. مسرحي جمال، المقاومة النوميدية للإحتلال الروماني من سيفاقس إلى تاكفاريناس 203ق.م-24م.المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية،الجزائر،2015.
13. الملحم محمد بن ناصر بن أحمد، سبيطلة من مواقع الإسلام الحاسمة (27-29هـ -647- 649م): دراسة تاريخية تحليلية للأحداث الواردة فيها، (مجلة جامعة الملك سعود) مجلد.11، المملكة العربية السعودية،1999 .

ثانيا المراجع باللغة الاجنبية:

14. Bremond (E.), Berberes et Arabes La Berberie est un Pays Européen, éd., payot, paris, France, 1950.
15. Diehl(ch.), l'Afrique Byzantine,Histoire de la Domination Byzantine en Afrique(533-709),Paris,1896.
16. Duval (N.)) et Baratte (F.),Les Ruines de SufetulaSbeitla, std, Tunis, 1973.
17. Mercier (E.), Histoire de L'Afrique Séptentrionale (Berberie) depuis Les Temps Les Plus Reculés jusqu'à La Conquête Française, 1830, T.1,éd., Ernest Deroux, Paris, France , 1888.
18. Tauxier(H.), Le Patrice Gregorius,(Revue Africaine),Vol.29,Alger,1885.